

أزمة بلا مازومين

من بين التعبيرات الموفقة في اللغة الإنجليزية : عبارة « تفكير التمني » أو « تفكير الأمانى » : فكثيراً ما يفكر الناس في أمور لا وجود لها ، ولكنهم من فرط تعلقهم بها ، يحسبونها أمراً واقعاً ، ويرتبون على وجود هذا « الموهوم » نتائج تتسلسل وتطول .

ومن أوضح الأمثلة على ما يخلقه التمني هو ما تواضعنا على تسميته « بالفكر الإسلامى الحديث » ، فقد طال انتظارنا لهذا الفكر الإسلامى ، واشتدت رغبتنا فى أن يخرج إلى الوجود ، وأن يسهم بالعناء والنقد ، والاقتراح والإلهام ، والتوجيه والإرشاد ، والمقاومة والمعارضة ، فى تكييف حياتنا وحل مشكلاتنا .

ولكن الأمة الإسلامية فى عصرها الأخير - وإن كانت قد حملت هذا الفكر ، ودفعت ما تدفعه من ضرائب الحمل ، من قلق وضيق ، ومن غثيان ودوار ، ومن ضعف ووهن - لم تضع بعد حملها ، حتى ظن بعض الأطباء ، أنه حمل كاذب . . .

ولكننا رفضنا أن نسلم بهذه الحقيقة المرة ، وأبينا إلا أن نتعامل مع الفكر الإسلامى باعتباره واقعاً يلمس ويرى ، ويتحرك بيننا ويعمل بالأحياء ، ولكى نؤكد لأنفسنا حقيقة وجوده تصورنا له من أدوار الأحياء وأدوائهم ، كل شىء : فأعلنا - فيما أعلنا - أن « الفكر الإسلامى فى أزمة » .

ولا بأس من هذا كله ، فإن هذه أعراض التطور المأمول ، ولا بد أن يسبق الحلم الواقع ، وأن يمهد الوهم للحقيقة ، ولا بد من شىء من الخيال ، لنخلق حياة جديدة ، ولنغير واقعاً كريهاً .
والحق أن المسلمين ، ونعنى مفكريهم وعلماءهم ، وأدباءهم

وشعراءهم ، قدموا للفكر الإسلامى الحديث هذا الوليد المرتقب ، فى القرن الأخير ، ما كان جديراً بأن يعث هذا الفكر ، صيباً فتيباً ، مليئاً بالحوية ، راغباً فى المناجزة والقتال ، بارعاً فى الكر والفر ، قوى الساعد ، مسدد الإصابة . فقيم تأخر ميلاده ولم طالت فترة الوضع ؟ يقول الشيخ عبد الوهاب خلاف فى بيان أسباب جمود المسلمين ، وتحجر فكرهم :

جمد التشريع الإسلامى ، ووقف عن مماشاة الزمن عن التطور بتطور المسلمين ، وزاد هذا الجمود تحجراً أن علماء المسلمين رسموا الإجماع بصورة لا سبيل إلى أن تتحقق فى الوجود ، وسموه بأنه اتفاق جميع المجتهدين فى الأمة الإسلامية بعد عهد الرسول على حكم شرعى . وقرروا أن الإجماع لا يتحقق إلا إذا عرف جميع المجتهدين من المسلمين فى العالم الإسلامى ، وأحصوا ، وأبدى كل منهم رأيه صراحة فى الواقعة المفروضة ، وعلم رأى كل واحد منهم ، وعلم أن كل واحد منهم أصير على رأيه إلى أن يتم إبداء كل واحد رأيه ، وكأنهم أرادوا إجماعاً عالمياً قاطعاً فى الحكم الذى ينعقد ، لا ما أراده الرسول حين قال لعلى : «أجمعوا له العالمين من المؤمنين واجعلوه شورى بينكم ولا تقضوا فيه برأى واحد ، فهو إنما أراد أن يكون رأى للجماعة لا للفرد» .

والمعلوم أن مصادر الأحكام فى الإسلام هى القرآن وسنة الرسول عليه السلام ثم الإجماع . وقد عرفت ما يفهمه من الإجماع فقهاء المسلمين فى أيامهم الأخيرة .

وما يقوله الشيخ عبد الوهاب خلاف ، عليه رحمة الله ، ليس المرض وإنما هو العرض كما سبق القول . فلماذا تشدد فقهاء المسلمين وعلمائهم هذا التشدد الذى يبدو معجزاً ، فى حين بدأت حياة المسلمين الفكرية باجتهداد الرسول عليه الصلاة والسلام ، واجتهاد صحابة الرسول وهو بين أظهرانيهم ، واجتهاد الصحابة والخلفاء بعد حياة رسول الله ؟ لماذا

قال الرسول صلى الله عليه وسلم : لا تقطع الأيدي في السفر ؟ أى لا تقطع يد السارق إذا كان المسلمون في حرب ؟ لماذا عطل عمر رضى الله عنه حق المؤلف قلوبهم ، وهو حق منصوص عليه في القرآن ، وكان الرسول يؤديه لهم ، وجرى على نفس النهج أبو بكر رضى الله عنه ؟ لماذا نهى عمر عن زواج أمراء المسلمين من الكتابيات وهو جائز بنص لا خلاف عليه ؟

كل ذلك لأن الحياة تسبق التفكير وتلده ، فإذا خرج للوجود ، ورأى نور الدنيا ، وسع آفاق الحياة وأغناها ، وأمدتها كل يوم بجديد ، ثم راح الاثنان : الحياة والتفكير ، يتفاعلا ويتبادلان الخبرات .
لكن لا بد أولا من إرادة الحياة . ولو نظرنا في تاريخ المسلمين لوجدنا أنه بدأ بدعوة بسيطة هي أن خالق هذا الكون كله واحد ، وأنه ليس كمثل شئ ، وأن جميع الأوثان والأصنام والأرباب والأحبار وأدعياء الولاية والكهان ، ومن يجرى في فلك الملوك والسلاطين والشيوخ والرؤساء ، مخلوقات هذا الخالق الأسمى . ولما رضى المسلمون بهذه العقيدة وحدتهم ، وجعلت من العرب أمة ، وعندها تلتفتوا حولهم في هذا الكون البديع ، وقد تفجر فهمهم لعلم أحكامه وقوانينه وكشف خفاياه وخباياه ، وتذوق ما فيه من جمال ، وأدركوا ما يتخلله من دقة ورقة ، فإذا هم علماء مبدعون ، ومشرعون مقننون ، وقادة جيوش ، ومؤسسو دول ، ثم شعراء وأدباء ، وصانعو أساطير ، وفنانون وصناع .

فقهاء المسلمين كانوا يجتهدون ، وكانوا يشعرون أن هذه الحياة حياتهم ، وأن هذه الدنيا دارهم ، وأن هذا الكون الفسيح يدعوهم إلى التأمل والدرس ، والابتكار والخلق ، وأنه ليس هناك ربيع نخال لا تدوسه الأقدام ، ولا حرم منيع لا تتخطى إليه الأفكار . قالوا كل شئ :
توهموا وشكوا ، وتحققوا وآمنوا ، وراجعوا القديم وعلقوا عليه ، وأضافوا إليه ، واختلفوا حوله ، فاستحرت الخلافات ، وتعددت المذاهب (٧)

والمدارس . ولكن لما أдал الزمان على المسلمين : وسلبهم استقلالهم :
وجعل بلادهم حى مستباحاً لكل أجنبي . ولكل عقيدة وثقافة وحضارة
ولغة : انكششت نفوسهم . وضوّلت عزائمهم . وخافوا من كل شىء
حتى من دينهم . وأمّهات الكتب التى وضعها فقهاؤهم وعلمائهم .
قانتعلعت الصلة بينهم وبين أصل ثقافتهم . وأصبحوا مستهلكين
لا ينتجون شيئاً ويستوردون كل شىء : الملابس والمآكل . والكتب
والأفكار ، والأنظمة والمبادئ . وتسولوا فأصبح دينهم ملكياً وجمهورياً
وفاشيستياً وديموقراطياً واشتراكياً ، ورجعياً : فإذا صعد الناس إلى
القمر ، قالوا فى القرآن تنبؤ بذلك ، وإن حطمت الذرة ، قالوا إن فى
القرآن بياناً لهذا التحطيم .

ولو لم تغادر إرادة الحياة المسلمين ، وتتخلى عنهم : لما وضعوا هذه
الشروط المعجزة لمصدر من مصادر أحكام دينهم ، يضمن له متابعة
الحياة ، وملاحقة تطوراتها ، ويقول الأستاذ أبو زهرة فى هذا المعنى :
« وقد يخلو بعض الأقاليم أو بعض العصور من المجتهدين ، وليس ذلك
لأن الاجتهاد محرم وبابه مقفل ، بل لأن المدارك لم تتجه والحكم تقاصرت ،
وإن كان السبب ميسراً والباب مفتوحاً » .

بل لو أن هذه الإرادة تعيش شاكية سلاحها ، لاجتمع مجتهدو
المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها بأيسر الجهد . فما أكثر ما يجتمع
علماء الطب أو العلوم الطبيعية أو الاجتماعية فى مؤتمرات دولية ، ومؤتمر
لمجتهدى المسلمين لا يمكن أن يكون أبعد منالاً من مؤتمر يضم المشتغلين
بأى علم من علوم الإنسان وبخاصة أن دافع علماء المسلمين سيكون
دنيوياً ودينياً ، فى حين لا يكون لعلماء الفلك أو الهندسة إلا دافع
دنيوى بحت . وللمسلمين مؤتمر سنوى يمكن أن يغنى عن سواه من
المؤتمرات ، هو مؤتمر الحج .

ومع ذلك فإن فى هذا الإجماع آراء لبعض الأئمة والفقهاء ، من

ذلك ما نقل عن ابن حنبل في قول . وعن الشافعي في قول آخر : « من ادعى بالإجماع فهو كاذب . في حين يقول الشيخ شلتوت : « ولا أكاد أعرف شيئاً اشتهر بين الناس أنه أصل من أصول التشريع في الإسلام ثم تناولته الآراء واختلفت فيه المذاهب من جميع جهاته كهذا الأصل الذي يسمونه الإجماع » فاحتشأ الصعاب في طريق اجتماع الأئمة ليس مرده إلى الدين ، ولا إلى شيء في قواعد الإجماع . وإنما هو ما أصاب المسلمين أنفسهم . فنحى الإسلام عن حياتهم ، ونحاهم عن الحياة . ولذلك يصعب القول - أو يستحيل - إن التفكير الإسلامي في أزمة ، فإننا مهما تمنينا أن تقع هذه الأزمة . وتستفحل . باعتبارها علامة حياة ، فإنها لن تقع حتى يخوض المفكرون الإسلاميون مشكلات الحياة الحاضرة . يفكرون فيها ، ويفكرون لها ، ويقترحون مستوحين دينهم وتراثهم ، ولا يقتصر دورهم على عرض التراث الإسلامي وتنقيحه . على الرغم من أن هذا الدور عظيم ولا مناص منه . ولكن حينما نفرغ منه ينبغي أن يقدم الإسلاميون للناس نظاماً يعيشون في ظله ، يعطيهم مالا تعطيتهم أنظمة غيرنا . وعندها ستنفرج الأزمات ، وبانفراجها ندل على أن تفكيرنا كائن حتى ، يكسب من كل ما يعرض له من شر وخير .